

الكناية في القرآن الكريم

قال تعالى (وَمَنْ يَمْشِ السَّامَةَ عَلَى بَدَنِهِ)

قال تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ)

قال تعالى (يَجْمَلُونَ أَسْوَاحَهُمْ فِي آكَائِهِمْ)

من الوسخ» ومعناه أنهم لا ينقصون أحسن الأمور وأبخصها عند الحساب ولا يقع ذلك لا عن سهو ولا قصور فكيف بالأمور العظيمة وقد فسر بعضهم «فتيلاً» بما ينتج من فرك الدين من الوسخ وغيره؛ وذلك أن يحاسب خلقه بموازين لا يقع فيها الخطأ أو الزيادة أو لنقص حتى فيما اعتاد

الإنسان على تحقيره وإهماله. قال الله تعالى: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا» (٧٨) النساء فقد جاء معنى الكناية في قوله: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ» عدم امتناع أحد من الموت لأي سبب كان وأن الأسباب المادية لا تؤخر الموت؛ لأن يقع بأجله قال تعالى: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» (٣٨) الرعد والبروج المشيدة تمتنع على الأسباب المادية؛ لأنها مادية أما قدرة الله وقدرته رسله الموكلين فإنها نافذة؛ لأنها لا تخضع للمقاييس المادية.

قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (١٦) ق.

قال الله تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلَّا لَقِيلًا» (٨٣) النساء فقد جاء معنى الكناية في قوله: «يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» نبط الماء: نبع ومعناه أنهم يستخرجونه من مخابئه ومضائه الخفية عن سواهم؛ لأنهم امتازوا على غيرهم بالنبوغ والفهم وقد خص قوماً بذلك صرفاً لغيرهم ودفعاً من أن يكون البت بيد من هب ودب وإنما يكون ذلك على يد من أوتي البصيرة لأن الأحكام تحتاج إلى استخراج فكان لها وجه شبه نبط الماء.

قال الله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرٌ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَاقَاتِلُوكُمْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلْتُمْ عَنْهُمْ لَفَاقَاتِلُوكُمْ سِيبًا سَلَامًا فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» (٩٠) النساء فقد جاء معنى الكناية في قوله: «حصرت صدورهم» الضيق وعدم الرغبة في الدخول في أمر بل شدة كراهته وثقله على النفس إضافة إلى احتباس ذلك في قلوبهم وظهوره في ملامح وجوههم والحصر: الضيق وإذا ضاق الصدر اختنق الإنسان وجعل ما بهم ضيقاً لاحتباس أمر من الأمور في صدورهم وعجزهم عن البوح به فكان ذلك وجه المماثلة.

فإن عمل الإنسان يقع فيه الإحصاء ولا يؤخذ على عواهنه والله أعلم.

قال الله تعالى: «فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بِيَاثَاتِ اللَّهِ وَقَاتَلَهُمْ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلُهُمْ قُلُوبُنَا غَلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (١٥٥) النساء فقد جاء معنى الكناية في قوله:

«قُلُوبُنَا غُلْفٌ» وتعذر الفهم والإدراك عليهم والواقع أنهم أرادوا لأنفسهم ذلك طلباً للنجاة وعدم تحمل الأمر والنهي في كل ما لا يوافق أهواءهم و«الغلاف» حاجز وعازل بين أمرين؛ فقد جعلوا قلوبهم أغلفة تحول بينهم وبين الفهم؛ فكما أن العين غلافاً هو الأحقان فلا ترى العين إلا بفتحه فإن القلوب أيضاً تحتاج إلى نزع الأغلفة والحجب لترى وأيضاً فقد جاء معنى الكناية في قوله: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا» وهو طمس قلوبهم لكي لا يدركوا ما هم فيه من طريق الهلاك؛ لأنهم لا يستحقون النجاة لجحودهم و«الطبع» هو الختم وذلك دال على بلوغهم درجة لا يرتجى معها صلاح أمالهم فلا يزيدهم العلم إلا تمرداً وبقاؤهم على جهلهم أنفع من علمهم مع جحودهم.

قال الله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكُفَى بِاللَّهِ وَكَيْلًا» (١٧١) النساء فقد جاء معنى الكناية في قوله: «تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» من غليان الماء وارتفاعه ومعناه مجانية الحق وإتباع الهوى والميل معه والزيادة في الدين ما ليس فيه وإنما إتباع الوسطية وعدم الإفراط في أمر الدين والمبالغة وعدم التفريط والإهمال وجعل أمر الدين مستحقراً فتكون الوسطية أمر بين أمرين؛ لقوله تعالى: «وَجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» البقرة: ١٤٣ والغلو في الأصل من غلو الماء في المرجل وارتفاعه في حالة طيش وقتية ليس فيها سوى الهياج الذي لا نفع فيه وإنما يفضي إلى المضرة وتجاوز الحد؛ فكما أن الماء يرتفع ويخرج من المرجل فإن الغالي يرتفع ويخرج من الدين والله أعلم.

قال الله تعالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَاذِبِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا» (١٠١) النساء فقد جاء معنى الكناية في قوله: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ» تنقلتم في أرجائها بحثاً وتتبعوا وتحققوا عن أمر ما وقد تكون جاءت من ضرب الفأس أو السعي للبحث فيكون الضرب بمعنى البحث والتنقيب.

قال الله تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ نَقِيرًا» (١٢٤) النساء فقد جاء معنى الكناية في قوله: «وَلَا يُظَلَمُونَ نَقِيرًا» لا ينقصون حتى بما يكون الاستخفاف به في الدنيا وذلك لكي لا يزهو في شيء من الخير ولا يستخفوا بشيء من الشر ولتحضر قلوبهم في كل ما يفعلون بالرجاء والخشية وكلمة «نقير» نقرة في ظهر النواة ووجه المماثلة بين الأمرين أن عمل الإنسان إذا داخله أمر فإن هذا الأمر له أثره فكما أن النواة أحصي ما فيها من نقر؛

٢ - إن الكناية أسلوب حضاري مهذب

الكنائيات القرآنية أهلت هذا الكتاب العظيم ليكون معجزاً بنظمه



يتضح لنا من خلال تحليل بعض الشواهد كقوله تعالى: «وَقَدْ أَقْضَى بِعُضْكُمْ إِلَى بَعْضٍ» (٢١) النساء.

والحق أن الكنائيات القرآنية تأتي في المقدمة إذا عدنا الدقائق الفنية التي أهلت القرآن الكريم لأن يكون معجزاً بنظمه فمن الفصاحة والبلاغة أن تضع الألفاظ موضعها الذي لا يحسن فيه غيرها ومن وضع الألفاظ موضعها الذي لا يحسن فيه غيرها أن تكني بها عما لا يحسن التصريح به من قول أو فعل.

٣ - إبراز المعاني في صور حسية تبين قبحها أو جمالها وذلك من خلال تحليل بعض شواهد الدراسة.

٤ - إن الكناية تخرج بالمعنى من العموم إلى الخصوص؛ فكلمة كريمة يدخل تحتها كل من يتصف بالكرم ولكن عبارة «كثيرة الرماد» أفاد معنى خاصاً دالاً على كثرة الضيافة وهذا المعنى قد لا يتوفر في كل من يتصف بالكرم فالكرم الذي هو معنى مجرد تحول إلى معنى حسي في «كثير الرماد».

٥ - الإعراض عما يقبح ذكره والضرب صفحا عن المعاني التي تعف عنها الألسنة وذلك؛ لأن المعنى المجرد يتجسد بصورته في الذهن ولا يصرف صورته الواقعية عن الذهن كقوله تعالى: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ فَامْسَحْ بِرِجْلَيْكَ مِنَ الْغَائِطِ» (٤٣) النساء فلو ذكر هذان المعنيان بلغظيهما الموضوعين لهما لتصورهما الذهن؛ فتصور الجماع والحدث للشخص المذكور وهو أمر قبيح.

٦ - ومن محاسن الكناية تهويل المعنى وشدة وقعه في النفس لحصول العظة والخشية؛ كقوله تعالى: «لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ» (٤٢) النساء.

٧ - إن الكناية أبلغ من التصريح؛ لأنها - في كثير من صورها - تعطي الدعوى ودليلها والقضية وبرهانها والكلام المقرون بدليله أقوى من الكلام العاري عن الدليل والبرهان.

٨ - في الكناية تقوية للأداء الأدبي بإخراج الأمور المعنوية في صورة أشياء مادية تدرجها الحواس وتجسد المعاني في صور محسوسة تزخر بالحياة والحركة فيكون ذلك أدعى لتأكيدها ورسوخها في النفس

٩ - يستطيع بأسلوب الكناية التعمية والتغطية وإخفاء ما يود المتكلم إخفاؤه حرصاً على المكتنى عنه ورغبة في عدم ترده على الألسنة.

١٠ - الكناية طريق من طرق الإيجاز والاختصار كما أنها وسيلة للإقناع حيث تقدم لنا المعاني مؤكدة بدليلها ويتضح لنا ذلك من خلال شواهد هذه الدراسة.

واضح أن للكناية هدف تجميل الكلام وتحسينه وإظهاره في حلة جديدة دون إسفاف أو مجرد قصد التلاعب بالعبارات وإنما المقتضى غاية أصلية ثم كان الحسن والجمال ناتجا عضويًا لها وإلا لو كانت الكناية مجرد العيب دون غاية أفضت إليها مصلحة؛ لكانت مستقبحة فلها غاية صرف قبح القبيح وإظهار حسن الحسن.

رأي

لقد أوجدت الكناية مشتركات بين المعاني المختلفة؛ مما أوجد تقارباً بين هذه المعاني وجعلت من اللفظ المستعمل في وجه واحد يستعمل في وجوه مختلفة الرابطة بينها دلالة حسية أو وجدانية بحيث ينقل الحسي إلى الوجداني فيعطيه صورة بصرية شاخصه ومما أفادته أيضاً أنها قوت استعمال الكلمة وحررتها من قيدها فصار للكلمة الواحدة وجوه ومعان يظن إلى استعمالها أولو الأفهام ويدركها أولو الألباب وبذلك صارت الكناية ركناً من أركان البلاغة التي لا يمكن أن يغفلها الدارسون.

ويكفي ما للكناية من وثيق الصلة بالقرآن الكريم ومعانيه الشريفة إضافة إلى شغف العرب بالكناية واقتنائهم بها واقتنائهم فيها فالكناية لون من ألوان التعبير البياني وقد عني بها نقاد العرب وعرفوا لها مكانتها في الإيضاح والتأثير؛ لأنها وردت كثيراً في كلام العرب والقرآن الكريم وكانت في كتاب الله موحية وموجزة ومصورة للمعاني خير تصوير وكانت مؤدبة مهذبة تتجنب ما ينيو على الأذن سماعه كما رأينا من خلال استعراضنا لأسلوب الكناية في سورة النساء.